

خطاب الترسل في العهد الأندلسي بين المحتوى و البناء

د .حسين بن عائشة

كلية الأدب العربي والفنون

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم

الخلاصة

لا شك أن خطاب الترسل هو فن مستقل بذاته استعمل في التراث العربي للدلالة على الكتابة والعلم والمعرفة .وفن الكتابة يقصد به- عند الباحثين من العرب القدامى - بـ" بصناعة الإنشاء " .كما يدل مصطلح "الترسل" على التكرير الدال على الحرفة والاحتراف نتيجة للاستمرارية في العمل والصناعة واستعمل مصطلح الترسل كصناعة عند الدارسين العرب لتوطيد العلاقة بين الحاكم والمحكوم من جهة، وما بين الحكام مشرقا ومغربا لتبادل أوامر الأخوة وتحقيق الترابط والتلاحم بينهما، ورسم العلاقات وتبادل الحوار بين الأنا والآخر، سعيا إلى تحقيق التبادل المعرفي والثقافي، الاقتصادي والاجتماعي من جهة أخرى. من أجل ذلك ارتأينا أن نحقق من وراء دراستنا هذه، تحقيق بعض الأهداف التالية:

- 1-نفص الغبار عن التراث العربي لمعرفة ما فيه من خفايا وكنوز،مازلت تزخر بها الثقافة العربية ماضيا وحاضرا.
- 2-التعرف على كتاب الرسائل الذين أتقنوا فن الترسل حتى تمكنوا من الإبداع الثقافي والأدبي،بغية التواصل مع الآخر،عربيا وأجنبيا، سالكين في ذلك أسلوب الحوار المبني على الأخذ و العطاء، و التبادل المعرفي.
- 3-إبراز العلاقة الوطيدة ما بين السلطة والمتقف المبنية على السلوك الحضاري و العلمي الذي يبعد الصراع والاستبداد عنهما.
- 4-إبراز دور الحاكم في احترامه للغة الضاد وذلك باستعمالها في جميع دواليب الحكم حفاظا عليها، وتحقيقا لعزة الإنسان العربي و كرامته.

الكلمات المفاتيح: الترسل،المراسلة،الاحترافية،التواصل، المرسل ، المرسل إليه، الصناعة، الكتابة

تمهيد:

لقد شهد النثر نقله نوعية نظرا لما أحرزته الأمة العربية من تطور في الحياة العقلية والحضارية، وذلك بفعل الدين الإسلامي الحنيف الذي أراد الله أن يكون رسالة منقذة ومحولة للمجتمع العربي في العصر الجاهلي من الجهل إلى العلم و المعرفة ، انطلاقا من أول آية كريمة نزلت على نبي الأمة - صلى الله عليه وسلم- وهي: [أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ].⁽¹⁾

حيث أننا نجد الفعل " اقرأ" يتكرر مرتين ، ثم ترد بعده كلمة " القلم" للدلالة على الكتابة، ومن هذا المنطق انتقل المجتمع العربي من إطار المشافهة إلى إطار الكتابة، لتتولد على إثرها عملية القراءة، وهذه الأخيرة هي تأكيد على إبقاء المشافهة، وإنما التغيير الذي طرأ هو أن المشافهة في العصر الجاهلي كانت غير مؤسسة على الكتابة، وبالتالي فهي غير مصونة ، حيث أننا نجد الكثير من الكتابات الشعرية أو النثرية مآلها الزوال و الانثار، من أجل ذلك حرص الإسلام على الكتابة والقراءة ، مما أدى ذلك إلى ظهور الخطاب النثري الذي ساهم هو الآخر في نشر الرسالة الإسلامية إلى المجتمع العربي وغير العربي ، "ليؤدي وظيفة تبليغ الدين الجديد عل نحو ما يظهر في رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك ذلك الوقت يدعوهم فيها إلى الإسلام"⁽²⁾ . إلا أن الترسل في العصر الإسلامي لم يكن فنا مستقلا بذاته ، بل قد اختلط مع الخطابة، لانعدام وجود خصائص أدبية تميزه عن غيره ، و لأن العرب قد اعتادت الخطابة مشافهة أكثر من الكتابة، " فقد كان الترسل أوالكتابة حاجة إدارية و لم يكونا في هذا العصر الذي نؤرخه فنا مقصودا لذاته . والعرب عامة كانوا أقدر على الخطابة منهم على الكتابة"⁽³⁾

وقبل انتهاء العصر الأموي تطور فن الرسائل ، فأصبح يطلق عليها بمصطلح "الكتابة" لالتزام الرسالة بقواعد و أصول تتمثل في المطالع المتضمنة للتحديات التي تختلف حسب ثقافة المرسل والمرسل إليه ، والخاتمة التي تتغير هي الأخرى على حسب ذلك أيضا ، إلى جانب ذلك تميزها عن الخطابة من حيث شكل هذه الأخيرة والأسلوب حيث يقول عمر فروخ: " ثم تطورت الرسالة نفسها وأصبحت الكتابة قبل أن ينقضي العصر الأموي صناعة ذات قواعد وأصول: أصبح للرسالة مطالع وفيها تحميدات تختلف باختلاف مقام الذين تصدر عنهم، وتوجه إليهم ثم لها خواتيم تختلف أيضا بحسب ذلك، وكذلك حدث في متن الرسالة أشياء من السجع والموازنة ، ومن الترداد المفصود، ومن

(1)-سورة العلق، الآية رقم 05.

(2)- ينظر ابن كثير، البدايةوالنهاية ،تحقيق أجود أبو ملح وأخرين، دار الكتب العلمية ،بيروت ط (4)،1988،(4)ص:262

(3)-عمر فروخ تاريخ الأدب العربي القديم ،دار العلم للملايين ،بيروت، ج(1) حزيران (يونيو) ، 1984 ط(5) ص 375

التأنق في التعبير والجمل. ثم طالت الرسائل أيضا. على أن خطاب الترسل ظل في العصر الأموي - في الأكثرية - "فنا رسميا" يتعلق بأمور الدولة" (4)

وبناء على هذا القول يتبين لنا أن الرسالة أصبحت لسان الدولة، تتسم بطابع خاص جعلها تحتل مكانة مرموقة في أعلى هرم الدولة، حيث أنشئ من أجلها ديوان الرسائل الذي لا يشتغل فيه إلا من يكون مؤهلا في كتابتها، وعارفا بأسلوبها، وبأسلوب من تبعث إليه الرسالة.

دلالة الترسل

لقد اشتهر خطاب الترسل عند النقاد القدامى بفن الكتابة التي تشتق من الكتب، وهو بمعنى الجمع، ومنه سمي الكتاب كتابا، لأنه يجمع الحروف وسميت الكتيبة كتيبة، لأنها تجمع الجيش. (4) وهي في نظر "ابن العباس الفلقشندي" تكون بمعنى العلم والعالم أي المحترف الذي احترف مهنة الكتابة وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى: "أم عندهم الغيب فهم يكتبون" والمقصود بلفظ "يكتبون": أي يعلمون ويستشهد بقوله (ص) حينما بعث معاذًا إلى أهل اليمن فقال (ص): "إني بعثت إليكم كتابا" ويراد من وراء ذلك العالم الذي يملك علما ومعرفة⁽⁵⁾ وخبرة ودراسة بكتابة الرسائل الرسمية أو الديوانية.

والمتمائل للدلالة الأولى (الجمع) التي تدل عليها الكتابة والكتيبة يجدها هي الأخرى تحويها كلمة "العلم" أو "العالم" التي جاء بها الفلقشندي، فالعالم لا يتحقق مستواه العلمي إلا بمجموعة من العلوم التي يجب أن يكون حاذقا فيها تعلم اللغة والأدب والدين وثقافة العصر المتمثلة في "الآنا" أو "الآخر".⁽⁶⁾

ومعنى ذلك أن يكون عارفا بمستوى المتلقي الذي تبعث إليه الرسالة فكريا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا، وفي ذلك يقول ابن قتيبة: "ويستحب له أيضا أن ينزل ألفاظه في كتبه، فيجعلها على قدر الكتاب والمكتوب إليه، وأنه لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضع الكلام، فإني رأيت الكتاب قد تركوا تقعد هذا من أنفسهم وخطوا فيه، فليس يفرقون بين من يكتب إليه "فرايك في كذا" وبين من يكتب إليه "فإن رأيت كذا"، و"رايك" إنما يكتبه بها إلى الأكفاء والمساوين، ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأستاذين، لأن فيها معنى الأمر، ولذلك نصبت، ولا يفرقون بين من يكتب إليه "وأنا

(4) عمر فروخ، المرجع السابق، ص 375.

(4) - عن النويري شهاب الدين عن الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين 8/7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م، ص 61.

(5) - الفلقشندي ابن العباس أحمد بن علي، صبح الأعشي في صناعة الأفضاء، نسخة مصورة من الطبعة الخيرة، القاهرة، ج1، من 51، (د.ت).

(6) - أنظر المصدر نفسه، ص 51.

فعلت ذلك" وبين من يكتب إليه "ونحن فعلنا ذلك" و"نحن" لا يكتب بها عن نفسه إلا أمر أو ناه، لأنها من كلام الملوك والعظماء". (7)

وهو ما نجده مستعملا عند الرسول -صلى الله عليه وسلم- في توجيهاته لكتاب الرسائل الموجهة إلى الملوك والأعاجم. (8)

وفي الاصطلاح تكون الكتابة بمعنى صناعة الإنشاء لا غير وهذا ما نجده عند النقاد القدامى من أمثال أبي هلال العسكري الذي عنون كتابه بسبب ذلك بـ: "الصناعتين" أي الشعور وكتابة الإنشاء، كما نجد ابن الأثير يسمي كتابه بـ: "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" ويعني "أدب الكاتب" كتابة "الإنشاء".

والمأمل في هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية تجعله يدرك أن مصطلح "الكتابة" يدل على الاحتراف أي أنها مهنة لا يمارسها إلا من يتقنها، ويمتلك علما غزيرا وثقافة واسعة، تؤهله لممارسة هذه المهنة عن جدارة واستحقاق.

آلية الكتابة:

فعملية الكتابة لا تتحقق إلا بوسائل أو آليات تعتمد عليها يجب توفيرها مراعاة للحفظ على شروط الكتابة والتمثلة في:

1. المادة أو الآلة ويقصد بها التوالي وهي الألفاظ والقلم.
2. الغرض ويراد به تقييد الألفاظ بالرسم أو الأشكال الحرفية أو الخطية المكملة لفئة النطق.
3. الغاية: وهي الشيء المستثمر أي ما يراد تحقيقه من ورائها من فوائد أخلاقية أو دينية أو سياسية. (9)

مصطلح الترسل:

أما مصطلح "الترسل" فهو من تراسلت، أترسل، ترسلا، وأنا مترسل وهو دلالة على تكرير فعل الترسل، أما الفعل راسل، يراسل مراسلة، فهو مراسل لدلالة على الاشتراك في المراسلة التي لا تكون إلا بين اثنين المرسل والمرسل إليه وأصل الاستقبال أنه كلام يرسل به من بعد أو غاب، فاشتق له اسم "الترسل" والرسالة من ذلك. (10)

نستنتج من هذا المعنى اللغوي لمصطلح الترسل أن المتلقي الذي توجه إليه الرسالة لا يكون حاضرا، وفي هذه الحالة يجب أن تكون الرسالة مكتوبة وما يؤكد على ذلك ما ورد في لسان العرب أن

(7) - ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1963م، ص 15/14.

(8) - ينظر إلى: أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981، من ص 172/174/175.

(9) - ينظر: صبح الأعشى، ج1، ص 36.

(10) - ابن منظور، لسان العرب، باب (ترسل)، دار المعارف القاهرة.

معنى الترسل هو "من الترسل في الأمور والمنطق كالتمهّل والتثبت، والترسل في الكلام: التوقّر والتفهّم والترفق من غير أن يرفع صوته شديداً. (11)

مما يتجلى لنا أن مهنة الترسل ليست من الأمور العادية، بل إن كاتب الرسالة يجب أن يتحلّى بروح من المسؤولية في اختبار أفكارها، والتدبر في كلماتها، وصياغة أسلوبها، والتدرج في معانيها، ولن يتأتى له ذلك إلا بالتفكير السليم، والعلم الغزير.

وعلى هذا الأساس استحققت أن تكون الرسائل من خطاب الترسل المتمثلة في الرسائل الديوانية والإخوانية، وهي: "ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبراً فيه عن شؤون خاصة أو عامة، وينطلق فيها الكاتب عادة على سحبه بلا تصنع أو تأنق، وقد يتوخى حيناً البلاغة والغوص على المعاني الدقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع". (12)

ومن هنا يمكننا القول أن خطاب الترسل من خلال هذه المقولة يتسم بمجموعة من السمات التي تميزه عن غيره من الأجناس الأخرى وهي:

1. الكتابة: أن يكون مكتوباً حتى تتحقّق للمتلقّي قراءته والاستماع إليه.
2. الهدف: أن تكون الرسالة لهدف معين، خاص بالحكم والرعية، أو عام فيما يحقق مصلحة الأمة والأفراد.
3. الاحترافية: ويكتسبها الكاتب بالخبرة التي تمكنه من تجنب التكلّف والتصنع.
4. البلاغة: وهي بلوغ المعنى المراد بأوجز العبارات والأساليب، مع الابتعاد عن الإطالة في التعبير والإطناب.
5. الإيحاء: أن يتوخى الكاتب الدقة في استخدام الألفاظ، حتى تكون موحية بالمعاني المليبة للغرض المطلوب. وبناء على ذلك فخطاب الترسل قد اعتنى به العرب قديماً كسائر الأمم الأخرى فنوعوا أغراضه، وبنوا أساليبه، وفرقوا بين أنواعه، ووضحوا قواعده وأصوله. (13)

تطور خطاب الترسل:

(11) - قدامة بن جعفر: نقد النثر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، الجامعة المصرية، مطبوعات كلية الآداب، المطبوع (15)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1933، ص 95.

(12) - جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت 1979، ص 122.

(13) - ينظر ميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، ميشال عاصي/إميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين، ط8، بيروت، 1987م/1، ص 281.

إن الفصل في نشر هذا النوع من الأدب الفني هو ظهور الإسلام، وما لجأ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من فتوحات ساعدت على تطوير الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، إلى جانب ذلك هناك عامل آخر ساهم في تطوير أدب الترسل وهو احتكاك العرب بسائر الأجناس الأخرى. حيث وجد النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أنفسهم مضطرين في نشر الرسالة الخالدة فكان لا بد له من اتخاذ كتاب يساعده في ذلك ليراسل الملوك والأفراد، لإتباع هذا الدين الجديد، فكان عدد الكتاب الذين كلفهم بأمر الكتابة ليملي عليهم ما يوحي إليه ويقومون بمهمة الرسل خمسة وأربعين كاتباً. (14)

وهو الأمر الذي سار على منواله معظم صحابته رضوان الله تعالى عنهم، وأثناء مجيء العصر الأموي قام المسلمون فيه بتأسيس ما يسمى بديوان الرسائل في عهد معاوية ابن أبي سفيان، وانطلاقاً من ذلك احتلت الرسائل مكانتها في المجتمع الإسلامي ولاسيما الرسائل الرسمية منها لما لها من أهمية كبرى في تنظيم شؤون الحياة السياسية والاجتماعية ورسم العلاقات بين الأنا والآخر، وتأسيس حوار مبني على حسن الجوار والتبادل المعرفي والثقافي..

خطاب الترسل همزة وصل بين المغرب والمشرق

إن المتأمل لتلك العلاقة التي كانت سائدة بين المشرق والمغرب يجدها وطيدة بحكم ما يربط بينهما من دين ولغة وجنس، ونتيجة لهذه العلاقة المتينة، والأواصر القوية، كان المغاربة يشدون رحالهم إلى المشرق لأداء فريضة الحج، أو الاتصال بالعلماء، والتتلمذ على أيديهم مما نتج عن ذلك ما يسمى بأداب الرحلات مثل: "رحلة ابن جبير" المتوفى في مصر سنة (614هـ) و"رحلة ابن بطوطة" الموسومة: "بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" المتوفى سنة (779هـ)⁽¹⁵⁾ إلى غير ذلك من الرحلات العديدة التي لا يتسع المقام على ذكرها، ويبلغ عددها على حسب ما يذكره أحد الباحثين بستين رحلة.

والسبب الرئيس الذي جعل المغاربة يكثر من هذه الرحلات هو فريضة الحج والسبب الثاني هو طلب العلم والمعرفة، ولأجل ذلك نريد أن نبين بعض الخطابات الموجهة من ملوك بلدان المغرب إلى ملوك المشرق مستعرضين في ذلك أهم الموضوعات التي تضمنتها هذه الرسائل.

محتوى الرسائل:

إن من أجمل ما عبر عنه الخطاب الترسل الرسمي، هو مضمون الأخوة الشديدة التي كانت بين المشرق والمغرب على أساس الدين واللغة والحضارة التي ينتميان إليها، فأضحت هذه الأخوة حياة

(14) - عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية، دراسة في نشأة الآداب والمعارف العربية، وتطورها، طبع مطبعة الأديب البغدادية 1972، ص 119/104.

(15) - ينظر: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين 8/7، الطاهر محمد توات، ديوان م.ج، الجزائر، 1993، ص 227.

يشعر بها الفرد المغربي داخل مجتمعه وخير ما نستشهد به عن هذا الموضوع هو مقتطف من رسالة الخليفة الحفصي المتوكل على الله إلى السلطان الملك الظاهر برفوق صاحب مصر، يقول في ذلك: "إلى أختنا الذي لم نزل نشاهد من إخوانه الكريم في ذات الرب الرحيم قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا انتزاح، وثاب من حفظ عهده والقيم بحق وده، على ما يؤكد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح ونبادر لما يبعث القلوب على الائتلاف والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف وإن سخطت الدار وتناوت الصور والأشباح... وتستهدي ما يسرنا من أنبائه، ممن يرد من تلقائه، حتى من أنوار الصباح، وسفراء الرياح، ونبتهل إلى الله أن يخبرنا عنه ويصلحنا منه على ما يقر عيون الفوز ويشرح صدور النجاح." (16)

من خلال هذه الرسالة تتضح لنا العلاقة الوطيدة بين ملوك المشرق والمغرب وما يدل على ذلك هو جملة من الألفاظ الواردة فيها مثل (أخ، إخوان، قبلة، صفاء، حفظ، عهد، القيام، حق، ود، معرفة، الخلوص، معارف الأرواح، القلوب، الائتلاف، الأمن، الفوز، النجاح).

بالإضافة إلى ما يؤكد ذلك هو أن جل العبارات الواردة فيها زادت المعنى وضوحا، وساعدت على تعميق الأخوة بين الأشقاء المشاركة والمغاربة مثل: ("إلى أختنا، لم نزل من إخوانه الكريم، قبلة، صفاء، لم تغيرها يد بعاد، ولا انتزاح، وثاب من حفظ عهده، القيام بحق ود، على ما يؤكد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح... إلخ").

وهناك وسيلة أخرى تعبر عن مدى عمق العلاقة بين المشرق والمغرب ألا وهي الدعاء الذي تعقبه الاستجابة من الله بغية دفع المصائب والكوارث، ومن ذلك نجد الخطاب يذكر دعاء الخليفة الحفصي والتماسه من الخالق تفريج كربة أبي سعيد برفوق في استرداد ملكه وومملكته، وفي هذا المجال نقول الرسالة متضمنة في طياتها الدعاء: "أعلمكم أن علم الله من حين اتصل بنا خبركم الذي جره القدر المقدر، وجرى به في أم الكتاب الحكم المسطور، لم نزل نتوجه إلى الله تعالى في مظان قبول الدعاء، ورفع النداء بحيث يجبركم بفضل من حيث صدق، ويصلكم بخير إثر ما قطع، ويعطيكم من نعمته أضعاف ما منع، إلى أن دارك الله بلطفه وأحاب، تأذن بفضل في قبول الدعاء يظهر الغيب وهو مستجاب، فرد عليكم ملككم، وصدق إليكم ملككم." (17)

من خلال ذلك نلمس أن الدعاء دلالة على الحب والأخوة التي كان يشعر بها المغاربة نحو إخوانهم المشاركة ومما يزيد هذه العلاقة متانة هو فرح أهل المغرب بنصر إخوانهم المشاركة على الأعداء، ولا يتأخرون عنهم في المدح والتهنئة، وإعطائهم للهدايا، وذلك ما نشاهده في الرسالة التالية: "ولما جاء بنصركم البشير وطلع من ثنية الهناء أكمام السرور إلينا يشير، هزنا له أعطاف الارتياح، وتلقينا منه وارد التهاني والأفراح وحيدنا الله لكم على ما من به من الفوز والنجاح، ورأينا أن تهنتكم به

(16) - القلقشندي، صبح الأعشى، مصطفى ديب البغا، ج/8، ص 79-80.

(17) - المصدر نفسه، ص 83.

من فروضنا المؤكدة، وعهودنا المجددة، فاقضى نظرنا الجميل أن عينا له شيخ دولتنا المستشار وعلمها الذي في مهماتها إليه يشار، فلان وحملناه من أمانة الحب ما يلقي إليكم، من حديث الشوق ما يقص أخباره عليكم، ومن طيب الثناء ما يفيض ختامه بين يديكم وأصبحناه برسم اصطبلاكم الشريفة ما يبسر الحب سبيلها، وأوضح الخلوص دليلها، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها، إذ لو كانت السلوك تهادى على قدر جلالها لما اتسعت لذلك خزائن أموالها، لكنها عنوان الحب السليم، حسب ما اقتضاه الحديث النبوي الكريم". وهذا النوع هو من الرسائل الإخوانية التي تتضمن معاني الحب وحسن العلاقة بين الأنا والآخر على أساس ما يمليه الدين واللغة والمصير، وتصور تلك العواطف مشاعر الأفراد من رغبة وهبة، ومن مديح وهجاء، ومن عتاب واعتذار، واستعطاف ومن تهنئة واستمناح، وثناء أو تعزية. (18)

وما يلاحظ على الرسائل الديوانية أنها اهتمت بالتقنين لبعض هذه الموضوعات وبينوا ما يستحب وما لا يستحب، فالرسائل الصادرة من السلطان في الأمر والنهي، تتميز بالتوكيد الكلامي البعيد عن الحشو اللفظي، لأن غايتها تطبيق حكم السلطان وهي شبيهة بالتوقيعات التي تعتمد على إيجاز اللفظ، وتأكيد المعنى وإذا كانت خارجة عن الأمر والنهي فإنها تتميز في مجملها على الإطالة والتكرير دون الحذف والإيجاز، وذلك في الأمور الاقتصادية، وكذلك في موضع الإحماد والإذم والثناء والتقريظ والذم والاستصغار والعدل والتوبيخ وسبيل ذلك أن تشبع الكلام فيه ليرتاح بذلك قلب المطيع ويبسط أمله ويرتاع قلب المسيء، ويأخذ نفسه بالارتداع. (19)

منهجية الرسائل المعتمدة:

نلاحظ أن المنهجية المتبعة في الرسائل الرسمية والأدبية هي كالتالي:

أ. المقدمة: احتوت على جملة من العناصر الأساسية في الرسالة وهي المرسل والمرسل إليه، الدعاء، التحية.

ونلاحظ أن الافتتاح الذي جاءت به المقدمة تختلف صياغته، فتدل تارة على المرسل أو المرسل إليه مقرونين بالدعاء أو تقديم أحدهما عن الآخر وكمثال عن صياغة الافتتاح المنطلقة من المرسل ما نجده في جواب الخليفة الموحد علي رسالة لصاحب مصر وهو السلطان الملك الظاهر (برقوق) حيث يقول فيها: "من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين، أحمد بن مولانا الأمير أبي عبد الله ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر، ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به الإسلام وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام". (20)

(18) - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط2، 1982، ص 491.

(19) - أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: مفيد قميجة، دار الكتب العالمية، بيروت، ط1، 1981، ص 173.

(20) - القلقشندي، المصدر السابق، ص 89.

كما أننا نجد من الصيغ الافتتاحية ما يستهل فيها صاحب الرسالة المرسل إليه، مثلما نجد عند القيتوري على لسان العزفيين إلى الخليفة الموحي، حيث يقول: "الحضرة الإمامية العلمية المقدسة الطاهرة المباركة السنوية السعيدة المنصورة المؤيدة، الرشيدية، أيد الله أمرها، وأعز نصرها، وأوزع الأمة المحمدية حمدها وشكرها".⁽²¹⁾

وهناك من الرسائل الموجهة من الأعلى إلى الأدنى كتلك الرسالة التي يوجهها الأمير إلى شخصية معينة، فنجد كاتبها يستفتحها بصيغ خاصة مثل: "سيدي الشيخ" أو "الشيخ الأجل"، وخير مثال على ذلك رسالة أبي القاسم العزفي إلى أبي محمد القشتالي، أبقاه الله لأهل الدين والفضل علما، وعرفه من نعمه أوفاهما حظوظا وأوفرهما قسما، ولا أعدم أهل ولائه بصالح دعائه خيرا مكملا ولا نافعا متمما".⁽²²⁾

أما الصيغة الافتتاحية في الرسائل الأدبية فهي: "سيدي" و"يا سيدي" و"الخليل" و"الجليل" و"الفقيه الأجل" و"الحمد لله" و"لا قوة إلا بالله"، ثم تتبع هذه الصيغ بالدعاء، مثلما هو موجود في رسالة ابن رضوان الذي يتوجه بخطابه إلى ابن الخطيب قائلا: "يا سيدي الذي علا مجده قدرا وخطرا، ومما ذكره في الأندلس الحافلة ثناء وشكرا، وسما فخره في المراتب الدينية والدينية جدا وأجرا، أبقاك الله جميل السعي، وأصيل الرأي، سديد المرمى، رشيد الأمر والنهي، ممدوحا من بلغاء زمانك بما بالنوايا والعشي، مفتوحا لك باب القبول عند الواحد الحق".⁽²³⁾

وهناك صيغة افتتاحية أخرى يستعملها كاتب الرسالة بالشعر لتدريج الرسالة وتزيينها، وتكون لها علاقة مع موضوعها الأساس، وهذا ما نجده مستعملا في رسالة ابن عميرة إذ يقول:

تحية منكما أتتني	طابت كما طاب مرسلها
ويالها أذكرت عهدا	قلبي والله ما سلاها
حللتما في البلاد أرضا	ريح صباها عني سلاها
لم يصب قلبي إلا سواها	يوما ولم يسئل عن سلاها

الكرامة الإمامية أبقاها الله موكلة بالدين الحنيفي"

ونلاحظ الصيغة نفسها تتكرر عند الكاتبين ابن عميرة وابن الخطاب حيث يقول ابن عميرة فيها : "كتابي أيها الإخوان اللذان يودهما أقول، وعن عهدهما لا أحول...".⁽²⁴⁾

(21) - الرسائل ورقة 237، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ك 233 لجواب أهل سلا عن كتاب الخلافة في موضوع بيعة أهل تلمسان.

(22) - القيتوري، رسائل ديوانية من سبته في عهد العزفي، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، المطبعة الملكية، الرباط، ص 109.

(23) - لسان الدين بن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، م/3، ص 435، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط/2، مكتبة الخانجي، الشركة المصرية ط، ن، القاهرة، 1973

(24) - نفع المقرئ أحمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1968، ص

والملاحظ على هذه الرسائل المتوجة مقدمتها بالشعر أننا نلمس من خلالها مدى روح التنافس الفني والشعري بين الكتاب، وخاصة في مجال الرد على هذه الرسائل تجد الكاتب يرد بعدد الأبيات نفسها، وبالوزن والقافية ذاتها، كما نجد ذلك موظفا في رسالة "ابن رضوان" التي تعد جوابا لابن الخطيب التي يقول فيها:

متى شئت ألفي من علائك كل ما ينيل من الآمال خير منالها⁽²⁵⁾

كبر احتلال من دعائك زارني وعادات بر لم ترم عن وصالها

ومن خلال عرضنا لهذين النموذجين نلمس سمة أخرى ألا وهي توظيف عنصر التراث، حيث نجد أن معظم الكتاب كانوا متمسكين به والمتمثل في تلك النقائض الموجودة بين الفرزدق وجريير، التي كانت تتبني أساسا على الحوار الشعري، وإبراز الكفاءة الشعرية، ومدى القدرة على استخدام الألفاظ المناسبة لموضوع الرسالة بصفة عامة.

الصيغ المعبرة عن الغرض:

إن عملية الانتقال من مقدمة الرسالة إلى غرضها المراد تحقيقه، كانت تتم بواسطة صيغ وألفاظ معينة مصحوبة بالدعاء، ومن ذلك على سبيل المثال: "...وبعد فكتبه العبد كتب الله لها (الحضرة) سعدا قائما.

"وإننا كتبنا إليكم وإلى الله وفود البشائر عليكم، وضاعف ضروب المسرات عليكم"⁽²⁶⁾، و"كتابنا هذا إليكم هذا من حضرتنا العلية، وقد افتر بالبشر ثغرها، وازدادت بالنصر جيدها، وعمرت بالمسرات أقدارها هذا وإلى الله بقاءكم"⁽²⁷⁾

فالألفاظ " كتب، وكتبنا وكتابنا " تدل على نقطة التحول إلى التعبير عن الغرض أو الفكرة المراد تحقيقها، في حين أن لفظ "وإلى هذا" يبين بصفة جلية التعبير المباشر عن صميم الموضوع، وهذا ما تتميز به جميع الرسائل الرسمية، في حين أن غيرها من الرسائل، وخاصة الرسائل الأدبية بشكل عام لا يكون فيها الكاتب مقيدا بصيغة معينة.

شكل الخاتمة في الرسائل الرسمية:

كثيرا ما نجد الرسائل الرسمية مذيلة في معظمها بلفظ "السلام" أو بعبارة: "رحمة الله وبركاته" بحيث تكون مسبوقه بالدعاء مثلما جاء في رسالة الأمير "يغمراسن" الموجهة إلى الخليفة الموحي

(25) - ابن الخطيب، المصدر السابق، م/3، ص 452

(26) - رسالة بن يغمراسن إلى أبي إسحاق الحفصي، ص 49، مخطوط المكتبة الحسنية، الرباط رقم 4605.

(27) - رسالة من المتوكل عبد الله المريني إلى أهل مدينة سلا، ينظر نفاضة الجراب، ص 341.

بتونس قائلاً: "أبقاك الله للدنيا جمالا، وللدن موثلا ومآلا، وللآمال جاها ومالا، ولازالت يد التأييد لرايتها رافعة، وأعناق المارقين عن أمرها لسيفها خاضعة بمنة والسلام".⁽²⁸⁾

وفي رسالة أخرى للدباغ الفاسي التي أرسلها إلى ابن الأحمر يقول فيها: "والله تعالى يبقي بركته، ويديم عافيته، ويتم ما جنحت إليه طباعه، وسارح إلى تهذيبه من التواليف الشريفة، والتصانيف المنيفة يرهه، والسلام"، الأتم يعتمد كماله، ورحمة الله وبركاته، من معظم قدره أحمد بن محمد الدباغ".⁽²⁹⁾ ما يلاحظ على الدعاء في هذه الرسائل أنه يتميز بالقصر وابتعاده عن الطول والغاية منه على حسب رأينا هو جلب انتباه المرسل إليه، كسب ثقته والتأثير في نفسه.

كما أن هذا الدعاء يرد دائما قبل التحية سواء في الرسائل الرسمية أو الأدبية وصيغة الدعاء نفسها نلاحظها في هذه الرسائل الأخيرة مع إضافة بعض العناصر الأخرى كالتأريخ الممثل في اليوم والشهر والسنة. وذلك ما نجده في رسالة ابن خلدون الموجهة إلى الخطيب حيث يقول في ختامها: "والله يلحفكم جميعا رداء العافية والستر، ويمهد لكم محل الغبطة والأمن، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته ويجديكم على عوائد لطفه وعنايته والسلام الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم، عبد الرحمن بن خلدون، ورحمة الله تعالى وبركاته في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبع مئة (772هـ)".⁽³⁰⁾

ويشترط في هذا الدعاء الذي يتضمن الرسالة جملة من الشروط يجب على الكاتب الالتزام بها في تدوينه للرسالة وهي:

1. رشاقة اللفظ، وهو اللفظ السليم الفصيح المتداول والمعبر عن المعنى.
2. مطابقته المعنى، فلا يجوز للكاتب أن يجري وراء اللفظ بغرض التصنع أو الزخرفة اللفظية.
3. مطابقته لسياق المقام أو الحال أي مسايرة اللفظ للموضوع والغرض الذي تهدف إليه الرسالة.
4. ابتعاده عن التكرار لضمان تعدد معناه وتطابقه مع الغرض.
5. أن يراعي في الرسالة مستوى المتلقي، فإن كان الأمير هو المرسل إليه يراعي في الخطاب أسلوب الوقار والعبارات الدالة على الطاعة وامتنال للأوامر.
6. وإن كان شخصية علمية أو دينية أو قضائية يخاطبها بعبارات ملائمة للمقام التي هي عليه دالة على التبجيل والاحترام.

وهذه الشروط كلها يلخصها ابن عبد الغفور الكلاعي في قوله:

⁽²⁸⁾ الطاهر محمد التوات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص

391.

⁽²⁹⁾ المرجع نفسه، ص 391.

⁽³⁰⁾ المرجع نفسه، ص 392.

"وما يجب على الكاتب أن يحتوي في الدعاء الألفاظ الراشقة والمعاني اللائقة، ويتوخى من ذلك ما يناسب الحال، ويشاكل المعنى ويوافق المخاطب.⁽³¹⁾

الخاتمة :

بعد هذه الدراسة توصلنا إلى جملة من النقاط نحاول ذكرها بإيجاز على الشكل التالي :-

- 1 - نجد أن خطاب الترسل مستقل بذاته ويعتبر جنسا من الأجناس الأدبية التي اشتهر بها التراث العربي ويعبر بامتياز عن ازدهار الكتابة العربية .
- 2 - استطاع خطاب الترسل أيضا أن يعبر عن العصر الذي ولد فيه ، حيث تمكن العرب من خلاله أن يصنفوا الخطاب الترسل إلى الرسائل الديوانية التي تعبر عن الحياة السياسية ، والرسائل الإخوانية التي تعالج الحياة الاجتماعية ، والرسائل العلمية التي كانت ما بين الكتاب وطلبتهم ومن ذلك على سبيل المثال ما نجده في كتاب رسائل أندلسية للسهيلي .
- 3 - كما لاحظنا أن خطاب الترسل هو عبارة عن حوار يشكل بؤرة من العلاقات ما بين المغاربة والمشاركة بغية توطيد أواصر الأخوة والمحبة بينهما.
- 4 - مصطلح الترسل يدل على الصناعة والحرفة والمعرفة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على احترام العلم والعلماء وعلى العلاقة بين السلطة والكتاب التي كانت وطيدة مبنية على حسن الاحترام والتبادل للإدلاء بمختلف الآراء حول قضايا بناء الأمة والمجتمع .
- 5 - مضامين الخطاب الترسل تختلف من خطاب إلى آخر شكلا وموضوعا ، لغة وأسلوبا ، معجما وجملا ، مما يدل دلالة واضحة على تنوع الأفكار ، وسلاسة الأسلوب ، والثراء اللغوي والمعرفي .
- 6 - كما أننا لاحظنا أن خطاب الترسل متأثر أشد التأثير بالقرآن الكريم وبالأحاديث النبوية الشريفة ، وبالأمثال الشعبية ، وبالشعر العربي القديم .

⁽³¹⁾ - الكلاعي ابن القاسم محمد بن عبد الغفور - إحكام صناعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت 1966، ص 73.

7 - القارئ لخطاب الترسل يجد أن ظاهرة الاقتباس فيه تارة تكون مباشرة ، وتارة تكون غير مباشرة مما يضفي عليه عليه أسلوب الحجاج الذي يزيد من قوة بلاغته وبيانه إقناعا وتأثيرا في نفسية المتلقي .

8 - ومما لا يدفع على الملل أيضا نجد أن خطاب الترسل يتميز بالبنى الإيقاعية كالسجع والجناس والتزاج ،تساهم هي الأخرى في دفع القارئ إلى الشعور بلذة قراءتها ومعانقتها لما تحمله من أحداث وموضوعات .

9 - والمتأمل للنص الترسل يجهده نصا متماسكا، سواء من حيث بناه التركيبية البسيطة ، والمنسجمة دلاليا ، نظرا لما يكتسبه من الطابع الخيالي الذي تجسد في اللون البياني عن طريق الاستعارة والتشبيه اللذين رسما للنص بعده التداولي المرتبط بالسياق والمقام .

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ط4 ، 1963 م
- 2- ابن منظور ، لسان العرب ، باب (رسل) ج(6) دار صادر ،بيروت ،2003م
- 3- أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، تحقيق : محمد قميحة ، دار الكتب العالمية ، بيروت ، ط(1) 1981
- 4- جبور عبد النور : المجمع الأدب ، دار العلم للملايين ط(1) بيروت 1979
- 5- الرسائل ورقة 237 ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ك 233 لجواب أهل سلا عن كتاب الخلافة في موضوع أهل تلمسان.
- 6- رسالة بن يغمراسن إلى أبي اسحاق الحفصي :ص49 ، مخطوط المكتبة الحسنية ، الرباط رقم 4605 .
- 7- رسالة من المتوكل عبد الله المريني إلى أهل مدينة سلا ، ينظر نقاضة الجراب
- 8 - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، السفر /7 ، دار الكتاب ، وزارة الثقافة والارشاد العمومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، (د.ط) ، (د.ت)
- 9- شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، القاهرة ،ط(2) ، 1982

- 10- صبح الأعشى في صناعة الانشا : القلقشندي، تحقيق : د/ مصطفى ديب البغا ج(1)
- 11 - الطاهر محمد التوات ، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن ، ديوان المطبوعات الجامعية 1993 .
- 12- عز الدين اسماعيل ، المكونات الأولى للثقافة العربية ، دراسة في نشأة الآداب والمعارف العربية وتطورها ، طبع مطبعة الأديب البغدادية 1972م
- 13- قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق طه حسين / عبد المنعم العبادي ، الجامعة المصرية ، مطبعة كلية الآداب ، مطبوع 15 ن مطبعة دار الكتب ، القاهرة 1933 م .
- 14- القلقشندي ، صبح الأعشى ، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ج/ 8 .
- القيتوري ، رسائل ديوانية من سبته في عهد العزفي ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة ، المطبعة الملكية ، الرباط (د.ت)
- الكلاعي ابن القاسم محمد بن عبد الغفور - أحكام صناعة الكلام ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت 1966 م
- 17- لسان الدين بن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، م/ 3 ، ص 435 تحقيق : محمد عبد الله عنان ، ط/ 2 ، مكتبة الخانجي ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة 1973 م .
- 18- نفع المقري أحمد التلمساني ، نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج (1) تحفيف إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1968
- 19- ميشال عاصي/ إميل بديع يعقوب ، المعجم المفصل في اللغة والأدب دار العلم للملايين ، ط(8) بيروت 1987 م .